

البعد الاستراتيجي لحملة بوبليوس كورنيليوس سكيبو على شمال افريقيا
(204ق.م-201ق.م)

*The Strategic Dimension of the Campaign of Publius Cornelius
Scipio on North Africa (204-201 BC)*

1- د.سامية معوشي*، جامعة الجيلالي بونعامة، خميس مليانة (الجزائر)

s.maouchi@univ-dbkm.dz

تاريخ الاستلام: 2023 / 02/24 تاريخ القبول: 2023 / 04/26 تاريخ النشر: 2023 / 06/04

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على السياسة العسكرية التي تبنتها روما خلال الحرب البونية الثانية (218-201 ق.م) من أجل استبعاد حنبعل من أراضيها، وحمله على التحرك بقواته المعسكرة بإيطاليا والعودة بها لأفريقيا، فعمدت إلى نقل الحرب إلى شمال افريقيا عن طريق توجيه حملة عسكرية بقيادة " بوبليوس كورنيليوس سكيبو " (Publius cornelius scipion) الذي نزل بقواته سنة 204 ق.م، وعمل على كسب حلفاء له في المنطقة من أجل فتح جبهة قتال جديدة ضد قرطاجة على الأراضي الافريقية، فتحالف مع ماسينيسا الذي أصبح معاديا لقرطاجة، بعدما فشل في استمالة سيفاكس الذي انحاز إلى جانب قرطاجة. لقد خاض الطرفان سلسلة من المعارك الدامية على أراضي افريقيا أفضت فيها مخططات سكيبو القائمة على التخريب والجوسسة على معسكر خصومه وحصار المدن وغيرها رفقة نظيره ماسينيسا إلى سقوط سيفاكس في معركة السهول الكبرى 203 ق.م، تلتها معركة زاما 202 ق.م التي أسفرت عن هزيمة قرطاجة بقيادة حنبعل وتوقيعها على معاهدة الاستسلام.

كلمات مفتاحية: سكيبو الافريقي، الحرب البونية الثانية، شمال افريقيا، روما، قرطاجة.

*- المؤلف المرسل

Abstract:

This study aims to highlight the military policy adopted by Rome at the end of the Second Punic War (218-201 BC) in order to exclude Hannibal from its territory and to get him to move with his military forces from Italy and return to Africa. It moved the war to North Africa by directing a military campaign led by Publius Cornelius Scipio, who disembarked in 204 BC. He won allies in the region to open a new fighting front against Carthage on African soil and allied himself with Massinissa, who became hostile to Carthage, after failing to co-opt Syphax, who sided with Carthage. The parties have fought a series of bloody battles on Africa's territory, in which Scipio's plans based on sabotage and espionage on the camp of his opponents, sieging cities and others, together with his counterpart, Massinissa, led to the fall of Syphax in the Battle of the Great Plains in 203 BC, followed by the Battle of Zama in 202 BC. The latter resulted in the defeat of Carthage, led by Hannibal, and its signing of the surrender treaty.

Keywords: Scipion Africanus; Hannibal; Second punic war; North Africa; Rome; Carthage.

مقدمة

شهدت الضفة الغربية للبحر الأبيض المتوسط في القرن الثالث قبل الميلاد اندلاع الحرب البونية الثانية (218 ق.م - 201 ق.م)، بين روما وقرطاجة، وقد تولى قيادة هذا الصراع من جانب قرطاجة القائد العسكري حنبعل (247-183 ق.م) ابن "هاميلكار برقة"⁽¹⁾، بينما تناوب على كرسي القيادة الرومانية لهذه الحرب أكثر من قائد روماني أثبتوا فشلهم وعجزهم في الإطاحة بحنبعل

⁽¹⁾ - هميلكار: ولد سنة 275 ق.م وتوفي عام 228 ق.م، له من الأبناء الذكور بالإضافة إلى حنبعل، ماقون وأصدربول، فضلا عن ثلاث بنات واحدة كانت زوجة بوملقار والدة حنون بوملقار، والثانية زوجة أصدربول العادل الذي تولى قيادة الجيوش بعده، والثالثة زوجة نارفاس حليفه النوميدي. انظر: عبد المنعم المحجوب، ليبيا القديمة، دار الاتحاد للنشر والتوزيع، تونس، 2018، ص 374، 375.

وحملته العسكرية التي نجح فيها في نقل ميدان الحرب إلى إيطاليا نفسها، الأمر الذي دفع بروما إلى انتهاج سياسة عسكرية محكمة تستبعد فيها خطر حنبعل من المنطقة خاصة بعد سلسلة الانتصارات المتتالية التي أحرزها في إيطاليا وتجبره على العودة إلى إفريقيا، وقد أسندت هذه المهمة إلى القائد العسكري "بوبليوس كورنيليوس سكيبو" الذي عرف فيما بعد باسم "سكيبو الإفريقي". فمن يكون هذا القائد؟ ما هو المخطط العسكري الذي تبناه في هذه الحرب للضغط على حنبعل وحمله على العودة إلى شمال إفريقيا؟ ما هي أهم المعارك التي خاضها؟ وماذا ترتب عنها؟ وكيف كان موقف الملوك النوميديين من الصراع القائم بين القوتين المتصارعتين؟

1. نبذة عن "بوبليوس كورنيليوس سكيبو":

يعتبر سكيبو (235-183 ق.م) من خيرة القادة العسكريين الرومان الذين حققوا انتصارات على القوات القرطاجية المرابطة في شبه جزيرة إيبيريا وإفريقيا في الحرب البونية الثانية، وقد لُقب بـ "سكيبو" وهو اسم الشهرة لعائلته في روما القديمة، كما اكتسب لقب "الإفريقي" بعد انتصاره على حنبعل في معركة زاما سنة (202 ق.م) بإفريقيا التي حسمت الحرب البونية الثانية لصالح روما، فاصبح يعرف بـ "سكيبو الإفريقي"، أما اسمه الكامل فهو "بوبليوس كورنيليوس سكيبو" (*Publius cornelius scipio*)، تم تعيينه على رأس الجيوش الرومانية سنة (211 ق.م) ليقود حملة عسكرية إلى شبه جزيرة إيبيريا بعدما لقي فيها والده "بوبليوس كورنيليوس سكيبو" مصرعه على يد القائد القرطاجي "ماقون" (*Magon*) و "هاصدروبل بن جيسكون"، بينما عمه "كنايوس" على يد القائد القرطاجي "أصدروبل" ⁽²⁾.

وقد حقق "سكيبو الإفريقي" سلسلة من الانتصارات في منطقة إيبيريا، حيث استولى بها على قرطاجنة سنة (209 ق.م)، وفي السنة الموالية (208 ق.م) تقدم إلى شعب الوادي الكبير (Guadalquivir) ⁽³⁾ وانتصر في معركة جرت في "بايكولا" (*Baecula*) على "أصدروبل البرقي" ⁽⁴⁾، وفي سنة (207 ق.م) ألحق هزيمة بـ "حسدربعل" في معركة "ميتور" (*Metaure*) التي لقي بها حتفه، كما انتصر أيضا على "ماقون" و "هاصدروبل بن جيسكون" في "إليبا" (*Ilipa*) سنة (206 ق.م) واستولى أيضا على

⁽¹⁾ -يسام العسلي، هانيبال القرطاجي 183-247 ق.م، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980، ص84.

⁽²⁾ - محمد أسد الله صفا، هانيبال، ط1، دار النفائس، بيروت، 1987، ص200.

⁽³⁾ - (Guadalquivir) : نهر اسباني يصب في المحيط الأطلسي غرب مضيق جبل طارق.

⁽⁴⁾ - اصطيافان اكصيل، تاريخ شمال افريقيا القديم-التاريخ العسكري لقرطاجنة-، تر: محمد التازي سعود، ج.3، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 2007، ص151، 152.

قادس، وبذلك لم يبق من فتوحات "آل برقة" في اسبانيا شيئا، وعاد "سكيبيو الافريقي" إلى روما حيث انتخب قنصلا وبدأ يحضر للحملة إلى افريقيا⁽¹⁾.

2. استراتيجية سكيبيو الافريقي لقيادة الحرب ضد حنبعل:

ترتكز هذه الاستراتيجية على خطوتين أساسيتين: الأولى تقوم على إقدام "سكيبيو الافريقي" بإقامة تحالفات سياسية وعسكرية مع الممالك النوميديّة بشمال افريقيا وتآليها ضد قرطاجة، وبالتالي قطع الامدادات العسكرية التي كانت تحصل عليها قرطاجة من حلفائها النوميديين، الذين وضعوا أراضهم وامكانياتهم العسكرية في خدمة قرطاجة، والثانية تقوم على نقل الحرب إلى افريقيا، ونجاح هذه العملية تستدعي منه البحث عن معين وسند له في افريقيا حتى يضمن لقواته عند عملية الانزال على الأرض الافريقية العون وتموين جيشه إذا ما دعت الضرورة لذلك⁽²⁾.

1.2. تحالف سكيبيو مع الملوك الوطنيين:

1.1.2. التقارب الروماني الماسيسيلي:

بعد نجاح حملة "سكيبيو" في اسبانيا واستيلائه على الممتلكات القرطاجية في هذه المقاطعة وقبل عودته إلى ايطاليا أرسل من "طراغونا" (*Tarragone*)⁽³⁾ مساعده العسكري "كاپوس لائيوس" (*Caius Laelius*) إلى سيفاكس ملك الماسيسيليين قصد التفاوض معه⁽⁴⁾، ولم يبدي سيفاكس أي اعتراض على ذلك بل أعرب عن استعداده لقبول صداقة الشعب الروماني لكنه فضل مقابلة "سكيبيو" شخصيا بدلا من مساعده "كاپوس لائيوس" لتمتين علاقة الصداقة بينه وبين روما⁽⁵⁾، وبدوره "سكيبيو" لم يتردد في قبول عرض الملك "سيفاكس" لما يمثله من دعم كبير لكل من تتوجه أنظاره نحو افريقيا، فضلا عن أنه الملك الأغنى في هذه البلاد، يملك الخبرة في الحرب ضد القرطاجيين، كما أن مملكته ذات موقع استراتيجي لايفصلها عن اسبانيا سوى مضيق ضيق، فكانت هذه الأسباب كافية بالنسبة "لسكيبيو" ليخوض هذه المجازفة الكبيرة⁽⁶⁾، فأبحر بصحبة مساعده "كاپوس لائيوس"

⁽¹⁾- محمد الهادي حارش، التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الاسلامي، المؤسسة الجزائرية للطباعة، (د.ت)، ص 68، 69.

⁽²⁾- محمد الهادي حارش، التطور السياسي والاقتصادي في نوميديا منذ اعتلاء ماسينيسا العرش إلى وفاة يوبا الأول 203-46 ق.م، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 1985، ص 20، 19.

⁽³⁾- طراغونا: مدينة ساحلية شمال شرق اسبانيا.

⁽⁴⁾- اصطيافان اكصيل، المرجع السابق، ص 168.

⁽⁵⁾- Tite Live, **Histoire Romaine**, Livre.XXVIII, Trad :M..Nisard, Paris, 1864, 17, 7-8.

⁽⁶⁾- Ibid, 17, 10-11.

خلال صائفة 206ق.م على متن سفينتين من مدينة قرطاجنة وتوجه إلى "سيقا" مقر إقامة سيفاكس، وشاءت الصدفة أن يتزامن نزول "سكيبو" على أراضي مملكة سيفاكس في نفس اليوم مع القائد القرطاجي "هاصدروبل بن جيسكون"، الذي قفل راجعا من قادس إلى قرطاجنة وهو يجر أذيال الهزيمة في اسبانيا بعد معركة "إلبيا" (Ilipa) 206ق.م وفي طريق العودة توقف في سيقا، وقد حظيا الطرفان المتنازعان بضيافة الملك "سيفاكس"⁽¹⁾ الذي رأى في قدوم "سكيبو" و"هاصدروبل بن جيسكون" قادة أقوى شعبين آنذاك، وفي نفس اليوم لطلب مساعدته وصداقته تشريفا له⁽²⁾.

عمد سيفاكس في هذا اللقاء الذي جمع فيه بين قادة أقوى أمتين آنذاك إلى تسوية الخلاف القائم بينهما بالطرق السلمية الدبلوماسية لوقف الحرب بينهما وذلك للحيلولة منه دون نقل الحرب إلى افريقيا⁽³⁾، ولكن "سكيبو" لم يستجب لطلب سيفاكس وأردف قائلا بأنه لا يُكِنُّ أي عداوة للقرطاجيين كي ينتهي هذا العداء بعلاقة صداقة، وفي نفس الوقت لا يستطيع أن يتفاوض مع عدوه في أمور تتعلق بالدولة دون أمر من مجلس الشيوخ⁽⁴⁾، وبعد هذه المقابلة التي أسفرت عن فشل "سكيبو" في كسب ود الملك "سيفاكس" عاد إلى قرطاجنة بعد رحلة شاقة دامت أربعة أيام بسبب هبوب الرياح المعاكسة⁽⁵⁾، أما عن مصير العلاقة بين قرطاجنة والملك "سيفاكس" بعد لقاء سيقا 206ق.م فقد توجت بعودته إلى حلفائه الطبيعيين القرطاجيين، وقد تعزز هذا التحالف بتزويج الملك "سيفاكس" من الأميرة القرطاجية "صفونيسبة"⁽⁶⁾ ابنة "هازدروبل بن جيسكون"، وهي الورقة الراحبة الراحبة التي اهتمت إليها قرطاج من أجل استعادة نفوذها السياسي في المملكة الثائرة واسترضاء الملك

⁽¹⁾ - اصطيفان اكصيل، المرجع السابق، ص 168.

⁽²⁾ - Tite Live, Livre.XXVIII, 18, 1.

⁽³⁾ - محمد بن عبد المؤمن، "الملك سيفاقس ولقاء سيقا الدولي 206ق.م- صفحة من الدبلوماسية النوميديّة"، مجلة عصور، كلية العلوم الانسانية والعلوم الاسلامية، جامعة وهران 1، الجزائر، مج. 06، ع. 01، 2007، ص 270، 271.

⁽⁴⁾ - فرانسوا دوكريه، قرطاجنة أو امبراطورية البحر، تر: عز الدين أحمد عزو، ط. 1، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1996، ص 203.

⁽⁵⁾ - اصطيفان اكصيل، المرجع السابق، ص 169.

⁽⁶⁾ - صفونيسبة (Sophonisbe): يذكر "تيت ليف" بأنها ابنة القائد القرطاجي "هاسدروبال" وزوجة سيفاكس، قبلت يد ماسينيسا وتوسلته بأن لا يسلمها للرومان بعدما وقع زوجها أسيرا عندهم، عرفت بجمالها وجاذبيتها، وقد توفيت تحت تأثير جرعة السم التي تناولتها من ماسينيسا بعدما طلب منه سكيبو احضارها إليه. انظر: Tite Live, Livre.XXX, 12, 17 ; Didore de Sicile, **Bibliothèque Historique**, Trad. Ferd Hoefer, Tome.04, Charpentier, Paris, 1846, Livre.XXVII, p326.

الغاضب⁽¹⁾، ولتثمين هذا التحالف بعث "سيفاكس" سنة 204 ق.م مبعوثين إلى "سكيبو" الموجود بسيراكوزة في صقلية يعلمه بأنه سيحارب مع القرطاجيين ضد الرومان إذا ما نقلوا الحرب إلى افريقيا⁽²⁾، دفاعا عن أرض افريقيا التي ولد فيها مثل القرطاجيين، ودفاعا عن وطن زوجته، ومن أجل والده وآلهته⁽³⁾. وبهذا تكون مساعي "سكيبو" في كسب صداقة الملك سيفاكس قد باءت بالفشل وذهبت في مهب الريح.

2.1..2. التقارب الروماني الماسيلي:

عملت روما بعد أن فشلت جهودها في استمالة الملك "سيفاكس" إلى توجيه أنظارها نحو ماسينيسا (238-148 ق.م) ابن "غايا" ملك الماسيل قصد جلب صداقته والتحالف معه، ويبدو أن نية "سكيبو" في استمالة ماسينيسا إلى جانبه قد اختمرت فكرتها في ذهنه قبل لقاء سيقا 206 ق.م، والدليل على ذلك إقدامه عقب معركة "بايكولا" (*Baecula*) عام 208 ق.م على إطلاق صراح "ماسيفا" ابن أخت ماسينيسا⁽⁴⁾ الذي وقع أسيرا عنده وارساله مجهزا ببعض الهدايا الثمينة تحت حماية بعض من فرسانه إلى خاله ماسينيسا⁽⁵⁾، ولقد لقيت هذه المبادرة استحسانا من طرف ماسينيسا⁽⁶⁾، الذي حسم قراره نهائيا بشأن علاقته مع قرطاجة، التي آلت إلى القطيعة النهائية بعدما تبين له تواطؤها مع غريمه الملك "سيفاكس" في قضية وراثة العرش النوميدي وذلك للحيلولة دون وصوله إلى اعتلاء حكم مملكة الماسيل بعد وفاة والده الملك "غايا" (*Gaia*) سنة 206 ق.م.

فالمتمتعار عليه في قضية وراثة العرش النوميدي أن يتولى الحكم الأكبر سنا في العائلة، فبعد وفاة الملك "غايا" آل الحكم إلى شقيقه "أوزلكيس" (*Oezalces*)، الذي عجل القدر بوفاته في نفس السنة⁽⁷⁾، فانتقل العرش إلى ابنه "كابوسا" (*Capussa*) وشاءت الأقدار أن يلقي مصرعه في أحد

⁽¹⁾ - شارل أندري جوليان، تاريخ افريقيا الشمالية- تونس، الجزائر، المغرب الأقصى من البدء إلى الفتح الاسلامي 647م، تع: محمد مزالي، البشير بن سلامة، مؤسسة تاوالت الثقافية، (د.م)، 2011، ص 87.

⁽²⁾ - محمد بن عبد المؤمن، المرجع السابق، ص 271.

⁽³⁾ - Tite Live, Livre XXIX, 23, 10.

⁽⁴⁾ - نجد تناقض عند "المؤرخ تيت ليف" بشأن ماسيفا، ففي الكتاب (27) يصرح بأنه ابن أخت ماسينيسا، بينما في الكتاب (28) يذكر بأنه ابن اخيه.

⁽⁵⁾ - Tite Live, Livre XXVII, 19, 8-12.

⁽⁶⁾ - Tite Live, Livre XXVIII, 35, 8.

⁽⁷⁾ - فتحة فرحاتي، نوميديا من حكم الملك غايا إلى بداية الاحتلال الروماني، الحياة السياسية والحضارية (213 ق.م/46 ق.م)، منشورات أبيك، الجزائر، 2007، ص 84، 85.

المعارك⁽¹⁾، ليقوم شخص يدعى "مازيتولوس" *Mazaetullus* " بتنصيب الأخ الأصغر لـ "كابوسا" وهو " لاكومازيس" الأصغر سنا من ماسينيسا على العرش وأعلن نفسه وصيا عليه⁽²⁾، وليقينه بأن ماسينيسا لن يسكت وسيطالب بحقه في ولاية عرش مملكة الماسيل أقدم على الزواج من أرملة "أوزلكيس"، وهي ابنة أخت حنبعل على أمل أن يصبح حليفا للقرطاجيين، كما سعى إلى تجديد روابط الضيافة التي جمعتها لفترة طويلة مع ملك الماسيسيل "سيفاكس"⁽³⁾، وهو ما أثار غضب ماسينيسا فانقلب على قرطاجة بعدما تبين له أن لها يدا مع الملك سيفاكس في تحريك تلك الأحداث ضد مصالحه السياسية في الحكم⁽⁴⁾، كما أن قرطاجة تنكرت لصدقاته وضحت به وبمطالبه رغم شرعيتها⁽⁵⁾، ولم تقدر جهد السنوات التي قضاهَا مرابطا بجيشه في اسبانيا منذ (211/212ق.م) إلى غاية (206ق.م) محاربا في صفوف القرطاجيين ضد الرومان⁽⁶⁾.

كما كان لانتصارات الجيش الروماني على القرطاجيين في شبه جزيرة ايبيريا، وفشل محاولات تعزيز جيش حنبعل بايطاليا وما سببته عن ذلك من خلافات سياسية داخل مجلس الشيوخ القرطاجي بشأن حملة حنبعل بايطاليا، واتساع مجال المواجهة القرطاجية الرومانية، بالإضافة إلى تأكيد ماسينيسا من حصوله على مؤيدين من نوميديا الشرقية ممن مست مصالحهم الاضطرابات الناشئة عن الحرب ووراثة العرش، كانت كافية بالنسبة لماسينيسا حتى ينقلب على قرطاجة، ويتحالف مع روما ويتفاوض معها في القضايا السياسية والعسكرية بما يحقق مصلحة روما منها ومصالحته⁽⁷⁾.
هكذا وعلى ضوء الأسباب السابق ذكرها قرر ماسينيسا الاتصال بـ "سكيبو" وكان ذلك في ربيع 206ق.م، فوقع اتصاله في شبه جزيرة ايبيريا بأحد ضباط سكيبو اسمه "يونيوس سيلنوس" (*Junius Silanus*)، ولم تفض المحادثات التي جرت بينهما إلى نتيجة ملموسة⁽⁸⁾، لأن ماسينيسا كان يريد مقابلة "سكيبو" شخصا فأخبر بذلك الضابط "لوكيوس ماركوس" (*Lucius Marcius*) الذي كان يرافق "سيلنوس"⁽⁹⁾، وقد تم اللقاء بين الطرفين في خريف 206ق.م على الأرض

⁽¹⁾ - اصطيفان اكصيل، المرجع السابق، ص 172.

⁽²⁾ - فتحة فرحاتي، المرجع السابق، ص 85.

⁽³⁾ - Tite Live, Livre.XXIX, 29, 11-13.

⁽⁴⁾ - محمد الهادي حارش، (التطور...)، المرجع السابق، ص 19.

⁽⁵⁾ - محمد فنطر، يوغرطة من ملوك شمال افريقيا وأبطالها، الدار التونسية، تونس، 1970، ص 49.

⁽⁶⁾ - اصطيفان اكصيل، المرجع السابق، ص 167.

⁽⁷⁾ - محمد البشير شنيقي، أضواء على تاريخ الجزائر القديم (بحوث ودراسات)، دار الحكمة، الجزائر، (د.ت)، ص 34.

⁽⁸⁾ - محمد فنطر، المرجع السابق، ص 50.

⁽⁹⁾ - فتحة فرحاتي، المرجع السابق، ص 87.

الافريقية، ولكي لا يثير ماسينيوس الشكوك حوله من طرف القيادة القرطاجية، ويستطيع العبور إلى افريقيا تحجج للقائد "ماقون" بعدم وجود مراعي كافية لخيوله بجزيرة قادس، كما ادعى أن فرسانه فقدوا حيويهم بسبب انتظار تسريح منه للانتقال إلى القارة لهرب النواحي الاسبانية الأقرب⁽¹⁾، وبمجرد وصوله أرسل ماسينيوس على جناح السرعة إلى سكيبيو ثلاثة رؤساء نوميديين لتحديد وقت ومكان اجتماعهما، وطلب منه أن يبقى على اثنين من رؤسائه كرهائن ويخلي سبيل الآخر ليقوده إلى المكان المتفق عليه⁽²⁾.

وأثناء اللقاء شكر ماسينيوس "سكيبيو" لاطلاقه سراح ابن أخيه، وأعرب له أنه يرغب في تقديم خدماته لسكيبيو وللشعب الروماني على نحو لم يساعد فيه أجني آخر روما، وأنه كان يرغب في القيام بذلك منذ فترة طويلة، لكن لم يستطع اظهار ذلك في اسبانيا في هذه الأرض الأجنبية المجهولة، ولكن سيظهره بسهولة على الأرض التي ولد وتربى فيها على أمل نيل العرش الأبوي⁽³⁾، وقد سُرَّ "سكيبيو" بعرض ماسينيوس وارتضى أن يكون حليفا له بعدما أعرب سيفاكس بأقواله وأفعاله عن اختياره لقرطاج⁽⁴⁾، وهكذا وبمجرد ما نزلت أول حملة عسكرية رومانية أرسلها سكيبيو بقيادة "كابوس لايوس" إلى شمال افريقيا بهدف جس نبض الخصم حتى اتصل به ماسينيوس واستفسر منه عن سبب تأخر وتباطؤ سكيبيو في انجاز سياسته الافريقية⁽⁵⁾، كما ألح عليه بضرورة التعجيل بتنفيذ مشروعه مادام سيفاكس مشغول بإخماد بعض الثورات⁽⁶⁾، وبالفعل بعدما استكمل "سكيبيو" تجهيزاته أبحر بأسطوله الحربي إلى شمال افريقيا سنة 204 ق.م ولما علم ماسينيوس بوصوله بادر إلى الالتحاق به صحبة فرسانه⁽⁷⁾.

3. نقل الحرب إلى افريقيا:

بعد أن استولى الرومان على كامل البلاد الاسبانية تحت قيادة "سكيبيو الافريقي"، عاد هذا الأخير إلى روما وانتخب قنصلا سنة (205 ق.م)، وقد عمد بعد انتخابه إلى عرض خطته العسكرية على

⁽¹⁾ - محفوظ قداش، الجزائر في العصور القديمة، تر: صالح عباد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1993، ص 84.85.

⁽²⁾ - Tite Live, Livre.XXVIII, 35, 4.

⁽³⁾ - Ibid, 35, 9-10.

⁽⁴⁾ - محمد فنطر، المرجع السابق، ص 51.

⁽⁵⁾ - نفسه، ص 58.

⁽⁶⁾ - محمد الهادي حارش، (التطور...)، المرجع السابق، ص 25.

⁽⁷⁾ - محمد فنطر، المرجع السابق، ص 60.

مجلس الشيوخ الروماني من أجل إنهاء الحرب مع قرطاجة، والتي تقوم على نقل الحرب إلى افريقيا انطلاقا من جزيرة صقلية، ولكن خطته هذه لقيت معارضة شديدة في مجلس الشيوخ، وكان على رأس المعارضين "فابيوس مكسيموس" (*Fabius Maximus*)، الذي كان يطالب بضرورة ترتيب حملة يقودها "سكيبو" يتخلص فيها من خطر "حنبل" الذي مازال قابعا بجيوشه في روما عوض السعي وراء مشروع أحقق من وجهة نظره، ولكن "سكيبو" أكد بأن غزوه لافريقيا سيحمل "حنبل" على حمل قواته والرجوع بها إلى افريقيا باعتبار أن الوضع القرطاجي في افريقيا لا يبشر بالخير خاصة في ظل توتر علاقاتها مع حلفائها الافريقيين الذين سيتخلون عنها حال نزوله على البر الافريقي، الأمر الذي حمل مجلس الشيوخ في العدول عن رأيه وتأييد "سكيبو" في حملته على افريقيا⁽¹⁾.

1.3. مرحلة جس النبض:

بعد أن وافق مجلس الشيوخ الروماني على خطة "سكيبو" وأقر مبدأ غزو افريقيا، توجه "سكيبو" إلى صقلية وعوض أن يبحر بقواته لغزو افريقيا في تلك السنة أي (205ق.م) انصرف إلى التحضير الجيد لحملة بصقلية واكتفى بتوجيه حملة استطلاعية وتخريرية إلى الساحل الافريقي بقيادة "كايس لايوليوس"⁽²⁾ على رأس عدد من السفن الحربية ليقوم بغارة على الساحل الافريقي القرطاجي، وقد نزل بقواته ليلا بإحدى ضواحي "هيبوريغيوس" (عناية حاليا)، وقام بأعمال تخريرية بها، وكان ذلك سهلا عليه لأن مجيئهم لم يكن ينتظره أحد، ولما وصل الخبر إلى قرطاجة انتشرت حالة من الهلع والذعر اعتقادا منهم بأن "سكيبو" قد هاجم التراب الافريقي بجيشه، لكن فيما بعد تبين لهم أن "كايس لايوليوس" هو من تبنى الهجوم وليس سكيبو نفسه، وأن عدد قواته قليلة جدا يقصد بها العبث في البوادي فحسب، وأن معظم الجيش لا يزال في صقلية⁽³⁾، وقد جرى خلال هذه الحملة بعض الاتصالات مع "ماسينيسا" الذي كان ربما يختبئ في جبال "خروميري"، وقد أعرب له عن استعداداته لدعم القوات الرومانية في حملتها على افريقيا، وألح عليه بضرورة التعجيل في تنفيذ العملية، خاصة وأن "سيفاكس" كان منشغلا بالنزاعات مع السكان المحليين⁽⁴⁾، وبعد المحادثة نصحه بأن يسرع في العودة، فقد بلغه بأن أسطولا قرطاجيا قد غادر قرطاجة، الأمر الذي حمل "كايس لايوليوس" على ركوب البحر مباشرة بعد ذهاب ماسينيسا⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ - محمد أسد الله صفا، المرجع السابق، ص 227، 228.

⁽²⁾ - فرانسوا دوكريه، المرجع السابق، ص 205.

⁽³⁾ - اصطيغان اكصيل، المرجع السابق، ص 183.

⁽⁴⁾ - فرانسوا دوكريه، المرجع السابق، ص 205.

⁽⁵⁾ - اصطيغان اكصيل، المرجع السابق، ص 183، 184.

2.3. سكيبيو الافريقي ينقل الحرب إلى افريقيا انطلاقا من جزيرة صقلية:

بعد أن استكمل "سكيبيو" ترتيباته العسكرية بجزيرة صقلية، أبحر إلى افريقيا في صيف سنة (204 ق.م)⁽¹⁾ على رأس أربعين سفينة حربية وأربعمئة سفينة نقل⁽²⁾، أما بشأن القوات التي رافقته فقد اختلفت روايات الكتاب القدماء بشأنها، فبعضهم قال أنها كانت تضم مابين عشرة آلاف من المشاة وألفين ومائتان فارس إلى ستة عشر ألف من المشاة وستة عشر ألف من الفرسان، والبعض ذكر ما مجموعه خمسة وثلاثون ألف مابين مشاة وفرسان، كما شحن على ظهر السفن المؤونة والطعام، حيث أُمّن ما يكفي من القمح والمياه اللازمة للجند والحيوانات لمدة خمسة وأربعين يوما بما في ذلك خبزا مطهوا مسبقا لمدة خمسة عشر يوما⁽³⁾، وكان ممن رافقه أخوه "لوكيوس" (*Lucius*) والمتصرف المالي "مريوس بوركيوس كاتو" (*M. Porcius Cato*) بالإضافة إلى "كايس لايوليوس"⁽⁴⁾.

ولتأمين الأسطول الحربي الروماني جعل له "سكيبيو" عشرين سفينة حربية تحرسه من كل جانب، فكان الجناح الأيمن تحت وصايته هو وأخوه "لوكيوس"، في حين جعل الجناح الأيسر تحت قيادة "كايس لايوليوس" و"مريوس بوركيوس كاتو"، وحتى لا يظل الأسطول طريقه في الليل جعل مشعل ملتهب على السفن الحربية، اثنان منهما على سفن الشحن، وثلاثة مشاعل على سفينته⁽⁵⁾.

4. نزول قوات سكيبيو بافريقيا:

1.1. العمليات الحربية:

عندما أقبل "سكيبيو" بأسطوله الحربي أصدر أوامره إلى الريان بأن يتوجهوا نحو "الأمبوريات" (خليج قابس) باعتبارها منطقة خصبة جدا وغنية بخيراتها المتنوعة، فضلا على أن سكانها مسلمون ويسهل اخضاعهم قبل أن تجندهم قرطاجة⁽⁶⁾، لكن عملية الإنزال تمت في مكان آخر بسبب الرياح الشديدة وعتمة الضباب التي رافقت مسار الحملة والتي جعلت الأسطول يرسوا بـ"الرأس الطيب"⁽⁷⁾ بالقرب من أوتيكا⁽⁸⁾. أسفرت العمليات العسكرية الأولى إلى احتلال قرى الإقليم والقيام بعمليات سلب

¹⁾-Tite Live, Livre. XXIX, 24,1.

²⁾- اصطيغان اكصيل، المرجع السابق، ص 185.

³⁾-Tite Live, Livre. XXIX, 25,1

⁴⁾- اصطيغان اكصيل، المرجع السابق، ص 186.

⁵⁾- Tite Live, Livre. XXIX, 25, 10.

⁶⁾- اصطيغان اكصيل، المرجع السابق، ص 186.

⁷⁾-Tite Live, Livre. XXIX, 27,12-13.

⁸⁾-شارل اندري جوليان، المرجع السابق، ص 87.

سلب ونهب⁽¹⁾، وأسر ثمنامائة رجل من الأحرار والعبيد، وأخذ مغانم كثيرة حملتها بعض سفن النقل إلى صقلية⁽²⁾، وفي هذه المواجهة التحق "ماسينيسا" بالرومان رفقة مجموعة من الخيالة يتراوح تعدادهم ما بين مائتان فارس على الأكثر حسب قول بعض المؤرخين وألفين فارس على رأي البعض الآخر⁽³⁾.

وبالطبع فقد وقع خبر نزول القوات الرومانية كالصاعقة على قرطاجة، التي سارعت إلى القيام بعملية التسليح وغلق أبواب المدينة وتحصين أسوارها بالمدافعين، وبالموازة قامت بتجنيد أربعة آلاف فارس يقودهم "حنون بن عملكار"، الذي عسكر بقربة سلايكا الواقعة على بعد نحو عشرة أميال من المعسكر الروماني⁽⁴⁾، وقد غرر بهذه الخيالة حيث استدرجت إلى كمين أعده ماسينيسا، تظاهر فيه فيه بالتراجع القسري حتى مكان أمكن فيه للخيالة الرومانية أن تهاجم القرطاجيين من الجانبين⁽⁵⁾، وقد أسفرت هذه المناورة عن مقتل "حنون بن عملكار" وألف من رجاله، فضلا عن نهب وسلب غنائم أخرى أرسلها "سكيبو" إلى صقلية بواسطة السفن التي رجعت إليه محملة بالمؤن والعتاد ومن ثم تحرك لوضع الحصار على أوتيكا⁽⁶⁾.

1.1.4. حصار أوتيكا:

بعد الانتصار الذي حققه "سكيبو" على قوات "حنون" توجه إلى أوتيكا يقصد احتلالها ليمضي فيها فصل الشتاء رفقة قواته، غير أنه أخفق في اجتياح المدينة بعد حصار بري وبحري دام أربعين يوما، حيث اضطر إلى التراجع تحت ضربات جيش "هاصدروبل بن جيسكون" المقدرة بثلاثين ألف من المشاة وثلاثة آلاف فارس وعدد من الأفيال، وجيش حليفه الملك النوميدي "سيفاكس" الذي كان قوامه خمسين ألف من المشاة وعشرة آلاف فارس⁽⁷⁾.

وأمام فشل "سكيبو" في اقتحام مدينة أوتيكا انسحب بقواته إلى معسكر شتوي محصن عرف فيما بعد باسم "كاسترا كورنيليا"، في حين تمركزت الفرق البونية والنوميديّة على بعد عشرة

⁽¹⁾ - فرانسوا دوكريه، المرجع السابق، ص 206.

⁽²⁾ - اصطيغان اكصيل، المرجع السابق، ص 190.

⁽³⁾ - Tite Live, Livre. XXIX, 29,4.

⁽⁴⁾ - اصطيغان اكصيل، المرجع السابق، ص 191.

⁽⁵⁾ - محمد أسد الله صفا، المرجع السابق، ص 230.

⁽⁶⁾ - اصطيغان اكصيل، المرجع السابق، ص 192.

⁽⁷⁾ - محمد العربي عقون، "ماسينيسا من استعادة حقه في العرش الماسيلي إلى بناء الوحدة النوميديّة 238-148 ق.م".

مجلة العلوم الاجتماعية والانسانية، جامعة باتنة 1، الجزائر، مج. 11، ع. 22، 2010، ص 96.

كيلومترات منه⁽¹⁾، ولأن الحرب خداع فقد استغل "سكيبيو" فترة المفاوضات التي بادر إليها "سيفاكس" من أجل حمل "سكيبيو" على الانسحاب من افريقيا مقابل انسحاب القرطاجيين من إيطاليا بالتجسس على معسكر خصومه⁽²⁾، وبعد أن تجمعت لديه كافة المعلومات الضرورية عن معسكر خصميه قطع مباحثاته معهم بحجة أنها لقيت معارضة مجلس القيادة الروماني، وبادر إلى تنفيذ مخططه بهجوم ليلي مباغت على مراكز خصومه في ربيع (203 ق.م)⁽³⁾.

أسند "سكيبيو" في هذه المواجهة قسما كبيرا من جيشه وجميع الماسيليين إلى "كايوس لائيوس" و"ماسينيسا" وأمرهم بالإعتداء على معسكر "سيفاكس" وإضرار النارفية⁽⁴⁾، بينما اتجه هو بمن بقي معه إلى معسكر "هاصدروبل"⁽⁵⁾، وقد نجح هذا الهجوم الذي أحرق فيه الرومان مراكز الخصم بكل سهولة نظرا لطبيعة المواد التي شيّدوا بها معسكراتهم والتي كانت من الأخشاب والقصب⁽⁶⁾، وعلى إثر هذه الكارثة هلك أربعون ألف رجل ذبحا أو حرقا، وأكثر من خمسة آلاف أسير بينهم نبلاء قرطاجيون، وأحد عشر عضوا من مجلس الشيوخ، وجمع مائة وأربعة وسبعون راية حرب، وتم الاستيلاء على ألفين وسبعمئة خيل نوميدي وستة أفيال فضلا عن قتل أو حرق ثمانية أفيال والاستحواذ على كمية معتبرة من الأسلحة⁽⁷⁾، ولم يبق في صفوف القائدين "سيفاكس" و"هاصدروبل بن جيسكون" اللذان تمكنا من الفرار إلا ألفين من المشاة وخمسائة من الفرسان⁽⁸⁾.

وعلى وقع هذه الهزيمة انسحب "هاصدروبل بن جيسكون" نحو مدينة "أندا" ليحتمي بها باعتبارها موقعا حصينا طبيعيا، لكن "سكيبيو" لحق به مع بزوغ الفجر وأخذ يقترب من المدينة التي أظهر سكانها استعدادهم للاستسلام، فغادرها "هاصدروبل" ودخل قرطاجة مع فلول جيشه، بينما قام "سكيبيو" بسلب ونهب المدينة ثم عاد ليستقر بالقرب من أوتيكا التي ضيق عليها الحصار، أما بشأن "سيفاكس" فقد نزل في "أبا" (Aba)، وهي موقع حصين يقع على نحو ثمانية أميال من "أندا"، وفيها التحق برجاله الذين نجوا من الكارثة ورجع بهم إلى مملكته⁽⁹⁾.

⁽¹⁾ -فرانسوا دوكريه، قرطاج الحضارة والتاريخ، تر: يوسف شلب الشام، ط1، دارطلاس، دمشق، 1994، ص 179.

⁽²⁾ - نفسه، ص 180.

⁽³⁾ - فرانسوا دوكريه، (قرطاج أو امبراطورية ...)، المرجع السابق، ص 208.

⁽⁴⁾ -Tite Live, Livre.XXX, 5, 4.

⁽⁵⁾ -اصطيفان اكصيل، المرجع السابق، ص 197.

⁽⁶⁾ - فرانسوا دوكريه، (قرطاج أو امبراطورية ...)، المرجع السابق، ص 207.

⁽⁷⁾ -Tite Live, Livre. XXX, 6, 8-9.

⁽⁸⁾ - Ibid, 6, 7.

⁽⁹⁾ -اصطيفان اكصيل، المرجع السابق، ص 199.198.

2.1.4. معركة السهول الكبرى 203ق.م:

1.2.1.4. الاستعدادات للمعركة:

بعد عودة "هاصدروبعل" وهو يجر أذيال الهزيمة إلى قرطاجة، وتحسبا لقيام "سكيبيو" بالزحف بجنوده من أوتيكا لمحاصرة قرطاجة، تم استدعاء أعضاء مجلس الشيوخ القرطاجي من أجل اتخاذ الإجراءات اللازمة لاحتواء الوضع، وأثناء المداولات اقترح البعض إرسال سفارة إلى "سكيبيو" وإقامة مفاوضات سلام معه، بينما رأى البعض ضرورة استدعاء حنبعل لإنقاذ الوطن من حرب الإبادة هذه، في حين دعا آخرون إلى ضرورة تشكيل جيش من جديد وحث "سيفاكس" على مواصلة القتال، وكان هذا هو ما استقر عليه الرأي في الأخير⁽¹⁾.

وعملا بالاقتراح الأخير كلّف مجلس الشيوخ القرطاجي "هاصدروبعل" بحشد الجنود من جديد، وإرسال وفد إلى "سيفاكس" ودعوته إلى مواصلة المعركة التي باشروها معا⁽²⁾، وقد عدل "سيفاكس" عن رأيه تحت توصلات زوجته الملكة "صفونيسبة" التي رجته بأن يواصل دعمه لقرطاجة، كما كان لانخراط أربعة آلاف رجل من "الكلت-الايبيريين" في صفوف قرطاجة أثر في بعث الثقة لديه⁽³⁾، ومع نهاية شهر نيسان (أفريل) تمكن "سيفاكس" بمعية "هاصدروبعل" من تكوين جيش قوامه ثلاثون ألف جندي عسكروا به في منطقة السهول الكبرى على بعد حوالي 120 كلم من أوتيكا⁽⁴⁾، وقد وقع الاختيار على هذا السهل ليتمكن "سيفاكس" من تلقي الإمدادات بسهولة وليستكمل استعداداته في أمان بعيدا عن الرومانيين⁽⁵⁾.

عندما علم سكيبيو بمكان وقوة خصمه ترك نصف قواته في حصار أوتيكا، وتحرك بما بقي من قواته المقدرة بحوالي عشرون ألف بما في ذلك خيالة "ماسينيسا"، وبعد مسيرة خمسة أيام وصل بجيشه إلى حيث يعسكر القرطاجيون⁽⁶⁾، وأقام معسكره على تل يبعد بثلاثين استاد (stade)⁽⁷⁾ عن

¹ - Tite Live, Livre. XXX, 7, 3-7.

² - فرانسوا دوكريه، (قرطاج الحضارة ...)، المرجع السابق، ص 180.

³ - اصطيغان اكصيل، المرجع السابق، ص 199.

⁴ - محمد أسد الله صفا، المرجع السابق، ص 232.

⁵ - اصطيغان اكصيل، المرجع السابق، ص 200.

⁶ - محمد أسد الله صفا، المرجع السابق، ص 232.

⁷ - استاد : وحدة قياس الطول عند الرومان تعادل حاليا ما يساوي 185.25 م.

معسكرهم، وفي اليوم التالي تقدم إلى أرض منبسطة وأخذ مكانه على بعد سبعة استادات من أعدائه⁽¹⁾.

2.2.1.4. اندلاع المعركة:

بدأ القتال بمناوشات واستفزازات بين الطرفين استمرت لثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع خرجا الجيشان إلى المعركة⁽²⁾، أما عن التخطيط العسكري للمعركة فقد رتب "سكيبيو" قواته وفق النظام الروماني المعروف، بحيث جعل في الخط الأول "الهستاري" (*hastaires*) أي "الأوائل" رماة الرماح، والخط الثاني "البرنكس" (*princes*) أي "المثاني"، والخط الثالث والأخير "التريري" (*triaires*) أي "المثالث"، وجعل الفرسان الإيطاليين على الجناح الأيمن، والنوميديون بقيادة "ماسينيسا" على الجناح الأيسر، أما "هاصدروبعل" و"سيفاكس" فقد وضعوا "الكلت-الايبيريين" في الوسط، والنوميديين على الجناح الأيسر، بينما القرطاجيين على الجناح الأيمن⁽³⁾.

عند المواجهة الأولى تراجع النوميديون أمام الفرسان الإيطاليين، كما تقهقر القرطاجيون أمام ضربات "ماسينيسا"، في حين قاتل الكلت-الايبيريون بشجاعة، لأنهم إذا فروا ليس لهم أمل في الخلاص في هذه الأرض التي يجهلونها، وإذا وقعوا في الأسر فلن يعفو عنهم "سكيبيو" بسبب خيانتهم وقدمهم لتقديم الدعم للقرطاجيين ضد الرومان، ورغم ما أبداه الكلت-الايبيريون من مقاومة إلا أنهم سقطوا تقريبا جميعهم في المعركة خاصة بعدما حاصرتهم قوات "سكيبيو" المثاني والمثالث، ومن جراء مقاومتهم استطاع قسم من القوات القرطاجية والنوميديية من الفرار مع "هاصدروبعل" و"سيفاكس"، حيث انسحب هذا الأخير بهدوء إلى مملكته بفرسانه، بينما دخل "هاصدروبعل" مع من بقي له من قواته إلى قرطاجة⁽⁴⁾.

2.1.4. نتائج المعركة ورد فعل قرطاجة:

على إثر الهزيمة التي لحقت بقرطاجة في معركة السهول الكبرى، عقد "سكيبيو" مجلس حرب قرر فيه أن يلاحق "ماسينيسا" و"كايس لأيليوس" "سيفاكس" حتى لا يتمكن من إعادة تجميع جيشه، بينما يقوم هو بجمع الغنائم والاستيلاء على المدن المجاورة⁽⁵⁾، وبعد مسيرة خمسة عشر يوما

¹-polybe, **Histoire Générale**, , Trad: Félix Bouchot, Tome. Deuxième, Lebraire Editure, Paris, 1847, Livre.XIV, VIII, 2-3.

²- Tite Live, Livre XXX, 8, 3-4.

³-Polybe, Livre XIV, VIII, 5-7.

⁴-Ibid, VIII, 8-14.

⁵- محمد العربي عقون، المرجع السابق، ص 96.

تمكن "ماسينيسا" رفقة "كاوس لاييوس" من دخول أراضي الماسيل⁽¹⁾، وفور ذلك قام "سيفاكس" بإيعاز من زوجته "صفونيسبة" بتجميع جيش كبير لاعتراض سبيل "ماسينيسا" و"كاوس لاييوس" ليوقف زحفهم نحو سيرا (قسنطينة حاليا)⁽²⁾ إلا أنه فشل في ذلك، حيث وقع أسيرا في يد خصمه وتم تسليمه حيا إلى "كاوس لاييوس"⁽³⁾، بعدما فقد خمسة آلاف قتيل من قواته⁽⁴⁾، وتم أسر نحو ألفين وخمسمائة من جنده بينما لجأ الباقي إلى العاصمة سيرا⁽⁵⁾.

عقب ذلك توجه "ماسينيسا" مع خياله لاحتلال مدينة سيرا، على أن يلحق به "كاوس لاييوس" ببطء، وعندما وصل إلى أسوار المدينة صمم أهلها على المقاومة وعدم الخضوع، لكن بعد أن أظهر لهم ملكهم "سيفاكس" مقيدا بالأغلال فتحوا له الأبواب فدخل المدينة، وفي طريق العودة اصطحب وراءه الملك الأسير "سيفاكس" وزوجته الملكة "صفونيسبة" التي عزم الزواج بها⁽⁶⁾، وعندما وصل "ماسينيسا" إلى معسكر "سكيبيو" أثنى عليه هذا الأخير أمام الجنود ومنحه لأول مرة لقب "الملك"⁽⁷⁾، وبالموازاة عاتبه على قرار زواجه من الملكة "صفونيسبة"، وأنها غنيمة حرب للشعب الروماني لا يحق له التصرف بها⁽⁸⁾، أما بشأن الملك "سيفاكس" فقد سير به إلى روما، وقضى بها بقية أيامه في السجن بمدينة "ألبا" (*Alba Fucens*) وهي مقاطعة رومانية منذ (304ق.م)، تقع على طريق فاليريا (*Faleria*) على بعد سبعة وستين ميلا من روما⁽⁹⁾، ومكث بها إلى أن أدركه الموت سنة (201ق.م)⁽¹⁰⁾.

¹)-Tite Live, Livre XXX, 11,1.

²)- اصطيغان اكصيل، المرجع السابق، ص 204.

³)-Tite Live, Livre XXX, 12, 1.

⁴)- Ibid, 12,5.

⁵)- اصطيغان اكصيل، المرجع السابق، ص 204, 205.

⁶)-أحمد توفيق المدني، قرطاجنة في أربعة عصور من عصر الحجارة إلى الفتح الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 61.

⁷)-Tite Live, Livre XXX, 15,11.

⁸)- اصطيغان اكصيل، المرجع السابق، ص 206.

⁹)- أبو بكر سرحان، "الحروب البونية بين روما وقرطاجة (264-146ق.م) أسبابها، أحداثها، نتائجها، وموقف الممالك الأهلية المغربية منها"، مجلة الدراسات الافريقية، معهد البحوث والدراسات الافريقية، القاهرة، ع. 35، 2013، ص 109.

¹⁰)-أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 61.

بعد النكبة التي أصابت قرطاجة في معركة السهول الكبرى، وسقوط حليفهم الملك "سيفاكس" أسيرا على يد القوات الرومانية، سارعت قرطاجة بإرسال أمر إلى حنبعل وأخيه بمغادرة إيطاليا والعودة على وجه السرعة إلى افريقيا⁽¹⁾، وفي الوقت ذاته أرسلت وفدا يتكون من ثلاثين عضوا من مجلس الشيوخ القرطاجي للتفاوض مع "سكيبيو" على الصلح⁽²⁾، وعلى ذلك لم يبدي "سكيبيو" أي أي معارضة، وأملى عليهم شروطه وترك لهم مهلة قدرها ثلاثة أيام لتداول الأمر⁽³⁾، أما عن هذه الشروط فكانت:

- إعادة قرطاجة للأسرى والهاربين والمنشقين من الجيش.
- تسحب جيوشها من إيطاليا وبلاد الغال.
- تتخلى عن اسبانيا وعن جميع الجزر الواقعة بين إيطاليا وافريقيا.
- تسلم جميع سفنها باستثناء عشرين منها.
- تقدم خمسمائة ألف (500.000) بواصو من القمح، وثلاثمائة ألف (300.000) بواصو⁽⁴⁾ من الشعير.
- تدفع ضريبة حرب قدرها خمسة آلاف (5000) تالنت⁽⁵⁾.

وقد أبدت قرطاجة الموافقة على هذه الشروط، فأرسل "سكيبيو" بعثة إلى روما لتصادق على بنود المعاهدة المشار إليها سابقا، والتي لم توقعها الجمعية الشعبية إلا في ربيع (202 ق.م)⁽⁶⁾، غير أن هذه الهدنة لم تدم طويلا بسبب عملية النهب التي طالت المراكب الرومانية المحملة بالمؤن في طريقها إلى افريقيا، حيث بسبب العاصفة ارتطمت بسواحل قرطاجة فنهبا القرطاجيون الأمر الذي أدى إلى اندلاع معركة جديدة⁽⁷⁾.

3.1.4. معركة زاما 202 ق.م:

3.1.4.1. أسباب المعركة:

⁽¹⁾ - محمد أسد الله صفا، المرجع السابق، ص 235.

⁽²⁾ - فرانسوا دوكريه، (قرطاج الحضارة...)، المرجع السابق، ص 183.

⁽³⁾ - Tite Live, Livre XXX, 16, 13.

⁽⁴⁾ - البواصو: مكيال قديم تكال به المواد الجافة يقدر بحوالي 13 كلغ. انظر: اصطيفان أكصيل، المرجع السابق، ص 349.

⁽⁵⁾ - Tite Live, Livre XXX, 16, 10-12.

⁽⁶⁾ - فرانسوا دوكريه، (قرطاجة أو امبراطورية...)، المرجع السابق، ص 210.

⁽⁷⁾ - شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص 87.

عقب مفاوضات الصلح بين قرطاجة و"سكيبو"، جهزت روما موكبين من السفن محملة بالمؤن لتموين الجيش الروماني بافريقيا، أحدهما جعلته تحت قيادة البريطور "بوبليوس كورنيليوس لنتولوس" (*p.c.Lentulus*) يضم مائة سفينة للنقل، تحرسها عشرون سفينة حربية انطلقت من سردينيا لتحط بافريقيا دون أن تواجه أعداء أو عواصف عاتية، بينما انطلق موكب آخر من صقلية يتكون من مائتين سفينة للنقل تحرسها ثلاثون سفينة حربية تحت اشراف "كنايوس أوكتافيوس" (*Gnaeus Octavius*)⁽¹⁾، وقد تعرض هذا الأخير لعاصفة في عرض البحر أمام السواحل الافريقية تمكنت فيها السفن الحربية أن تبلغ الساحل القرطاجي عند رأس فارينا إزاء أوتيكا، بينما سفن النقل دفعتها أمواج البحر إلى الساحل الغربي من رأس بون⁽²⁾.

ولأن قرطاجة كانت تعاني نقصا في الطعام بسبب ما كانت ترسله إلى "سكيبو" من كميات ضخمة من المؤن والمواد الغذائية وفقا لاتفاقية الصلح، فقد جعل سكانها يضغطون على مجلس الشيوخ القرطاجي من أجل حمله على الموافقة للاستيلاء على السفن الرومانية⁽³⁾، وتحت الضغط قرر المجلس إرسال "هاصدروبل" على رأس أسطول يتكون من خمسين سفينة لجر السفن الرومانية المتناثرة على السواحل بفعل العاصفة والتي هجرها طاقمها⁽⁴⁾، ولما علم "سكيبو" بذلك أرسل على جناح السرعة ثلاث سفراء له إلى قرطاجة وهم: لوكيوس سيرجيوس (*Lucius Sergius*) و"لوسيوس بيبوس" (*Lucius Bébius*) و"لوسيوس فابيوس" (*Lucius Fabius*) ليخبرهم بأن الشعب الروماني قد وافق على شروط السلام⁽⁵⁾، وليطالهم بالتعويض، ولكن القرطاجيين رفضوا ذلك لاسيما بعدما أن استفزهم أحد السفراء الرومان بكلامه قائلا: إن كنتم تعتمدون على حنبعل وجيشه فقد أخطأتم، لأن حنبعل غادر إيطاليا مغلوبا، وهو الآن سيجد أمامه جيوشا سبق لها أن انتصرت عدة مرات، إن حنبعل وجيشه سينهزمون، ولن يكون لهم أمل في رحمة أو عفو⁽⁶⁾.

بعدها قفل الوفد الروماني عائدا دون رد واضح على متن سفينة خماسية، وفي الطريق تفاجأوا بهجوم سفن ثلاثية قرطاجية لسفينتهم، وقد خلف هذا الاعتداء جرح ومقتل العديد من البحارة في صفوفهم، وتدمير جزء كبير من هيكل السفينة، وأما بشأن السفراء فقد تمكنوا من النجاة بأعجوبة⁽⁷⁾، وعلى وقع هذه الحادثة أطلق "سكيبو" جيشه للقيام بعمليات تخريب وجهت في الأرياف

¹)-Tite Live, Livre XXX, 24, 5-6.

²)- محمد أسد الله صفا، المرجع السابق، ص236.

³)- نفسه، ص237.

⁴)-Tite Live, Livre XXX, 24, 11-12.

⁵)-Polybe, Livre. XV, I, 2-3.

⁶)- اصطيغان اكصيل، المرجع السابق، ص212.

⁷)-Polybe, Livre XV, II, 12-15.

والقرى وأسر عددا كبيرا من الأهالي⁽¹⁾، وفي الوقت نفسه أرسل برساتله إلى "ماسينيسا" ليخبره كيف انتهك القرطاجيون المعاهدة، ويحثه على حشد قواته والالتحاق به في أسرع وقت ممكن⁽²⁾، أما القرطاجيون فقد وجهوا دعوتهم إلى "حنبل" كي يستعجل في العودة إلى إفريقيا ويحسم المعركة⁽³⁾.

4.3.1.2. عودة حنبعل إلى إفريقيا:

شكلت حادثة الاعتداء على قافلة تموين رومانية المشار إليها سابقا سببا في تجدد القتال مرة أخرى بين روما وقرطاجة، التي استنجدت بحنبعل ودعته لمغادرة الأراضي الإيطالية والالتحاق فوراً بإفريقيا، وبعد أيام من طلب العون نزل حنبعل بقواته بجهة لمطة (*Liptis Minor*) في صائفة (203 ق.م)⁽⁴⁾ ثم تمركز بالقرب من هدروميث (أو حضر موت)، وأخذ في دعم قواته بتجنيد المزيد من المحاربين والتحالف مع أمراء وأعيان القبائل في المنطقة⁽⁵⁾، كرئيس الأرياكين وأحد الميزوتلين الذي أتاه مع ألف فارس ومع "فرمينا" ابن الملك "سيفاكس" الذي كان مازال يملك معظم أراضي أبيه، فضلا عن أربعة آلاف فارس خرجوا عن "ماسينيسا" بعد أن كانوا من قبل في خدمة "سيفاكس"، وانضموا مجددا للمعسكر القرطاجي، كما عمد إلى شراء ما يكفي من الخيول من القمح⁽⁶⁾.

بعدها غادر حنبعل حضر موت وأقام معسكره قرب زاما، التي تقع على مسيرة خمسة أيام سيرا على الأقدام من قرطاجة إلى الغرب، ومنها أرسل ثلاث جواسيس ليتعرفوا على معسكر "سكيبو" ويدرسوا موقعه ومخططه العام، لكن اكتشف أمرهم وعوض أن يعاقبهم "سكيبو" جعل تحت تصرفهم ليبياً يعرض لهم معسكره بكل تفاصيله، وقبل مغادرتهم سألهم "سكيبو" إن تفحصوا معسكره جيدا فأجابوه نعم، ثم زودهم بالمؤونة وأعادهم تحت حراسة جيدة وأمرهم بإبلاغ "حنبل" بكل ما شاهدوه، وقد أثار هذا الموقف دهشة "حنبل" فصمم على مقابلة "سكيبو"، فأرسل في طلب إجراء مقابلة معه حول الظروف الراهنة، وقد أجاب "سكيبو" بالموافقة وأخبره بأنه حالما يكون جاهزا سيعلمه بتوقيت ومكان الاجتماع⁽⁷⁾.

بعدها عقد "سكيبو" و"حنبل" لقاءهما، وقد افتتح "حنبل" المفاوضات بالثناء على منجزات "سكيبو"، وأبدى استعداد له لقبول الصلح والموافقة على الشروط التي فرضها الرومان، وكان

⁽¹⁾ - فرانسوا دوكرية، (قرطاجة أو امبراطورية...)، المرجع السابق، ص 212.

⁽²⁾ - Polybe, Livre XV, IV, 3.

⁽³⁾ - فرانسوا دوكرية، (قرطاجة الحضارة...)، المرجع السابق، ص 185.

⁽⁴⁾ - محمد الهادي حارش، (التاريخ...)، المرجع السابق، ص 69.

⁽⁵⁾ - محمد العربي عقون، المرجع السابق، ص 97.

⁽⁶⁾ - اصطيافان اكصيل، المرجع السابق، ص 214.

⁽⁷⁾ - Polybe, Livre XV, V, 4-10.

جواب "سكيبو" أن جميع البلدان التي كانت موضع خلاف بينهم وبين قرطاجة تبقى تابعة لروما ويقصد بذلك صقلية، سردينيا، اسبانيا، وعلى قرطاجة أن تتوقف عن محاربة روما حول هذه المقاطعات، وفي المقابل تبقى جميع الجزر الواقعة بين ايطاليا وافريقيا ملك لقرطاجة، وإلى ذلك كله أضاف شروطاً أخرى وهو أن يتم إعادة السجناء دون فدية ويسلموا سفنهم الحربية، وأضاف قائلاً أن هذه الشروط حُضيت بمصادقة من طرف مجلس الشيوخ والشعب الروماني ولكن القرطاجيون هم من أخلوا بالاتفاق⁽¹⁾، ومن ثمَّ لا مجال للمطالبة بالحصول على شروط أفضل من تلك التي سبق الاتفاق عليها، وبإصرار كل طرف على موقفه انتهى الاجتماع دون نتيجة تذكر، وافترق القائدان وهما على ثقة بأن القتال ناشب بينهما في اليوم التالي⁽²⁾.

3.1.4.3. ترتيبات حنبعل وسكيبو لمعركة زاما:

بعد فشل المفاوضات التحق القائدان بمعسكرهما وأمرؤا جنودهم بإعداد أسلحتهم والتحلي بالشجاعة لخوض غمار آخر معركة⁽³⁾، وفي اليوم التالي الذي يصادف 19 أكتوبر 202ق.م ومع مطلع الفجر خرجوا بقواتهم من المعسكر واستعدوا لهذه المعركة⁽⁴⁾، التي حشد فيها حنبعل جيشاً قوامه خمسون ألف جندي، يضم حوالي اثنا عشر ألف من المرتزقة الليغوريين، والغاليين، البللياريين والموريين⁽⁵⁾ الذين جندهم "ماقون" ما بين (206ق.م) إلى (203ق.م)، بالإضافة إلى المشاة وكان بينهم القرطاجيون والليبيون الخاضعون لقرطاجة، وقسم كبير منهم كان قد جنده "هاصردوبعل بن جسكون"، وكان من المشاة أيضاً الجيوش التي عاد بها حنبعل من ايطاليا إلى افريقيا، ومحاربون قدماء اسبانيون وأفارقة بقوا على قيد الحياة من الجيش الذي غادر قرطاجنة، كما كان فيهم الغاليون والايطاليون الذين جندوا في شتاء (218-217ق.م)، كما ضم جيشه ألفي فارس نوميدي فضلاً عن فرسان قرطاجيين⁽⁶⁾، وإلى ذلك كله زود جيشه بأكثر من ثمانين فيلاً وهو رقم لم يجمعه في أي معركة⁽⁷⁾.

وبالنسبة لـ"سكيبو" فتجهز بجيش يبلغ تعدادده ما يقارب ثلاثة وعشرين ألف من المشاة وألف وخمسمائة فارس روماني وايطالي⁽⁸⁾، تعززه قوات حليفه ماسينييسا الذي دعمه بستة آلاف من

¹⁾- Polybe, Livre XV, VII, 2-8.

²⁾- محمد أسد الله صفا، المرجع السابق، ص 238، 239.

³⁾- Tite Live, Livre XXX, 32, 1.

⁴⁾- Polybe, Livre XV, IV, 2.

⁵⁾- Ibid, XI, 1.

⁶⁾- اصطيغان اكصيل، المرجع السابق، ص 226، 227.

⁷⁾- Tite Live, Livre XXX, 33, 4.

⁸⁾- اصطيغان اكصيل، المرجع السابق، ص 227.

المشاة وأربعة آلاف فارس⁽¹⁾، فضلاً عن ستمائة فارس (600) التي زوده بها أحد الملوك النوميدي يدعى "داكماس" (Dacamas)⁽²⁾.

ولمواجهة القوات الرومانية تبنى حنبعل خطة عسكرية جعل فيها الفيلة في الخط الأمامي لإرهاب العدو، ثم وضع خلفهم المرتزقة من الليغوريين والغالين والبلياريين والموريين، وفي الخط الثاني القرطاجيين والأفارقة والفيلق المقدونيين⁽³⁾، وأخيراً على مسافة أكثر من استاد الجنود الذين جاءوا معه من إيطاليا⁽⁴⁾، وأغلبهم بروتيان (Bruttians) تبعوه بالإكراه والقوة عندما قام بجلاء قواته من إيطاليا⁽⁵⁾، وجعل نفسه هو وسطهم⁽⁶⁾، وعلى الأجنحة نصّب الفرسان النوميديين على الجناح الأيسر، الأيسر، والفرسان القرطاجيين على الجناح الأيمن⁽⁷⁾.

أما "سكيبو" فقد رتب جيشه بالشكل التالي: فبالنسبة للمشاة جعلهم على ثلاثة صفوف، حيث وضع الهستاري في الصف الأول، وبعدهم المثاني، وأخيراً المثلث⁽⁸⁾، وجعل فراغات بين هذه الصفوف وبين السرايا التي تكون كل خط، وتخلّى عن الترتيب المعروف بالتخميس في الجيوش الرومانية، أي عوض أن يجعل سرايا الخط الثاني خلف فراغات الخط الأول، فإنه رتبها جميعاً وراء خط الأوائل، وقد اتخذ نفس الترتيب لخط المثلث، وقد اتخذ هكذا تدابير من أجل تفادي هجوم الفيلة، والخط الأول جعل له جنود بأسلحة خفيفة لسهولة تحركهم⁽⁹⁾، أما الخيالة فقد جعل "كاپوس" كايوس لايليوس" على رأس الفرسان الإيطاليين على الجناح الأيسر، و"ماسينيسا" برفقة النوميديين على الجناح الأيمن⁽¹⁰⁾، وقد أسندت لهذه الخيالة مهمة مزدوجة: الأولى تعرية جناحي العدو، إما بالقضاء على الفرسان الذين يكونون هذين الجناحين، وإما بطردهم ومتابعهم حتى يصيروا غير قادرين على تدخل جديد، والثانية: الانقضاض على جوانب جيش مشاة حنبعل ومؤخراته، باعتبار أن "سكيبو" لم يكن يمتلك عدداً كبيراً من المشاة لمقاومة الهجمات الأمامية⁽¹¹⁾.

¹)-Polybe, Livre XV, V, 12.

²)- محمد أسد الله صفا، المرجع السابق، ص 240.

³)-Tite Live, Livre XXX, 33, 4-5.

⁴)-Polybe, Livre XV, XI, 2.

⁵)-Tite Live, Livre XXX, 33, 6.

⁶)- اصطيغان اكصيل، المرجع السابق، ص 228.

⁷)-Tite Live, Livre XXX, 33, 7.

⁸)-Polybe, Livre XV, IX, 6-7.

⁹)- اصطيغان اكصيل، المرجع السابق، ص 229.

¹⁰)-Tite Live, Livre XXX, 33, 2.

¹¹)- اصطيغان اكصيل، المرجع السابق، ص 230.

3.1.4. اندلاع معركة زاما ونتائجها:

بعد أن استكمل حنبعل ترتيب جيشه أمر كل قائد بأن يبعث الحماس في جنوده، كما عدّد للضباط القرطاجيين حجم المآسي التي ستلحق بنسائهم وأطفالهم في حالة انهزامهم، وقد التزم كل واحد بما طلب منه، وفعل الأمر ذاته مع الجنود الذين جاءوا معه من إيطاليا، حيث ذكرهم في خطاب مطول بالانتصارات التي حققوها بصحبته في المعارك والحملات العديدة التي خاضوها ضد الرومان منذ السبعة عشر سنة مضت⁽¹⁾، وقد فعل سكيبو الأمر ذاته مع جنوده حيث أثار مشاعر الحماس في أنفسهم، ثم بدأت المعركة بمناوشات بين الفرسان النوميديين من كلا الجيشين، ثم أعقبه هجوم الفيلة غير أنها ذعرت من ضجيج الأبواق التي تعالت أصواتها من كل جهة فاستدارت على أعقابها مدعورة تدوس في طريقها كل شيء، وقد خلّف هذا الأمر فوضى لدى الخيالة القرطاجية والخيالة النوميديّة الموزعة على الجناحين، ولما رأى "ماسينيسا" و"كايوس لايوليوس" الفوضى التي أحدثتها الحيوانات، عمدا على الفور إلى الهجوم على الخيالة القرطاجية ميمنة وميسرة، ولم تمض لحظات حتى اختفت الخيالة القرطاجية كليا من ساحة المعركة⁽²⁾.

بعدها تقدم مشاة الجيشين ببطء وبهدوء، بينما بقيت القوات التي أعادها حنبعل من إيطاليا في مواقعها⁽³⁾، فاشتبك المرتزقة المشاة مع الهستاري واستطاعوا بفضل جرأتهم وخفة حركتهم بأن يلحقوا خسائر بخصومهم⁽⁴⁾، لكن الرومان استطاعوا بالتدريج أن يرجحوا الكفة لصالحهم بفضل حسن تنظيمهم وتفوق سلاحهم، كما كانوا متحمسين بالتشجيعات التي يتلقونها من قوات المثاني الرومانيين، بينما المرتزقة لم يتلقوا أي مساندة من القرطاجيين والأفارقة الذين بالصف الثاني عندما بدأت تخور قواهم أمام تقدم القوات الرومانية، مما دفعهم إلى الاعتقاد بأنهم تعرضوا للخيانة، فاشتبكوا في العراك معهم مما اضطر القرطاجيين والليبيين لمحاربتهم⁽⁵⁾، وقد أدى هذا إلى مصرع عدد كبير من المرتزقة والقرطاجيين الذين لقوا حتفهم إما على أيدي بعضهم البعض أو تحت ضربات الهستاري، ولم يسمح حنبعل للجنود الذين نجوا من الموت بالإختلاط مع قواته، وأصدر تعليمات إلى جنوده بالتصدي لهم، مما أجبرهم على الانسحاب على طول الجناحين في السهل⁽⁶⁾.

¹)-Polybe, Livre XV, XI, 4-6.

²)- محمد أسد الله صفا، المرجع السابق، ص 242.

³)-Polybe, Livre XV, XII, 7.

⁴)- Ibid, XIII, 1.

⁵)- اصطيافان اكصيل، المرجع السابق، ص 231.

⁶)- Polybe, Livre XV, XIII, 8-9.

لقد كان التنظيم الجيد للمشاة الرومانية هو الذي جعلهم يحرزون بعض التقدم على الجيوش القرطاجية، بالإضافة إلى عودة أجزاء الصف الأول (حاملي الرماح) لمساندة الصف الثاني (المثاني)، وبالتالي تمكنوا معاً من قهر المشاة الليبيين والقرطاجيين في الجيش البونيقي، فتحول ميدان المعركة إلى بركة من الدماء تعوم فيها جثث الجرحى والقتلى المتراكمة على بعضها البعض مما جعل سير الجند وحركتهم جد صعبة، فطلب "سكيبيو" من الجنود بسحب الموتى والجرحى خلف الجيش، وبعدها أمر المثاني والمثالث بتخطي الجثث والذهاب للوقوف بالجناحين مع رص الصفوف بهما، وأن يكونوا عند جانب الهستاري وبهذا كون المشاة صفًا واحدًا متراصًا، ثم أصدر الأمر لقواته بالعودة إلى الهجوم مجتمعين على الخط الأخير لحنبعل الذي يضم قدماء المحاربين الذين جاؤوا معه من إيطاليا⁽¹⁾.

استمر القتال على حالة من العنف والشدة، لارجحان فيه لهذا الطرف أو ذاك، إلى أن بوغت قوات حنبعل بعودة خيالة "كايس لايوس" و"ماسينيسا" إلى ميدان المعركة، حيث قامت بالهجوم على مؤخرة الجيش القرطاجي الذي أبعد في أرض المعركة⁽²⁾، ولما رأى حنبعل أن لا أمل له في تحقيق النصر عمد إلى الفرار رفقة بعض فرسانه ولجأ إلى حصرموت⁽³⁾، ومن حصرموت توجه إلى قرطاجة التي مضى على مغادرته لها مدة ستة وثلاثون عامًا⁽⁴⁾.

لقد كانت معركة زاما بمثابة مجزرة رهيبة للقرطاجيين وحلفائهم، فعلى وقع هذه المعركة فقدوا عشرون ألف قتيل وعدد كبير من الأسرى، ومائة وثلاثون راية حرب ومائة فيل⁽⁵⁾، وهناك من قال أن القتلى كانوا خمسة وعشرون ألف قتيل وثمانية آلاف وخمسمائة أسير⁽⁶⁾، أما خسائر الرومان في المعركة فكانت هي الأخرى محل خلاف بين المؤرخين، فبوليبوس يذكر سقوط ألف وخمسمائة رجل⁽⁷⁾، بينما قدرهم البعض بألفين وخمسمائة قتيل، ومعظمهم من جنود ماسينيسا⁽⁸⁾، وبعد المعركة قام "سكيبيو" بنهب معسكر القرطاجيين⁽⁹⁾. وعلى العموم فقد انتهت المعركة بعقد معاهدة

⁽¹⁾ - اصطيفان اكصيل، المرجع السابق، ص ص 231-233.

⁽²⁾ - محمد أسد الله صفا، المرجع السابق، ص 243.

⁽³⁾ - Tite Live, Livre XXX, 35, 4.

⁽⁴⁾ - Ibid, 35, 10.

⁽⁵⁾ - Ibid, 35, 3.

⁽⁶⁾ - محمد أسد الله صفا، المرجع السابق، ص 244.

⁽⁷⁾ - Polybe, Livre. XV, XIV, 9.

⁽⁸⁾ - اصطيفان اكصيل، المرجع السابق، ص 233.

⁽⁹⁾ - Polybe, Livre. XV, XV, 2.

معاهدة صلح أو ما يعرف بمعاهدة زاما سنة (201ق.م)⁽¹⁾، أُملى فيها الطرف الروماني المنتصر شروطه القاسية على قرطاجة.

5. مصير حنبعل بعد معاهدة زاما 201ق.م:

بعد نكبة معركة زاما وتوقيع قرطاج لبنود معاهدة الاستلام انتخب حنبعل سنة 196ق.م قاضيا، وبادر على اثرها إلى اجراء جملة من الاصلاحات بهدف القضاء على الفساد الذي استفحل في الجهاز السياسي والإداري لقرطاجة، فباشر إلى اصلاح أعلى هيئة قضائية وهي مجلس الأربعمئة التي كان أعضاؤها يعينون مدى الحياة وقرر أن يتم انتخابهم لسنة واحدة غير قابلة للتجديد، كما طالب بكشف حسابات الخزينة العامة القرطاجية بعدما تبين له حجم الاختلاسات والتلاعبات التي كانت تقوم بها الطبقة الارستقراطية من أجل الحفاظ على مصالحها الاقتصادية وتضخيم ثرواتها، كما خفض من حجم الضرائب المفروضة على الشعب⁽²⁾، ولأن هذه الاصلاحات كانت تتعارض مع أطماع خصومه في مجلس الشيوخ القرطاجي قاموا بإثارة روما عليه واتهامه عندها بأنه يخطط لحرب جديدة ضدها، مما دفع روما إلى مطالبة قرطاجة بتسليم حنبعل لها⁽³⁾.

ولما علم حنبعل بهذا النبأ غادر قرطاجة سنة 195ق.م سرا، والتجأ إلى " أنطيوخوس" (Antiochus) الثالث ملك سوريا، وأقنعه بخوض الحرب معه ضد روما لكن غلب على أمره في معركة "ماغنيسيا" (Magnisia) واضطر إلى توقيع معاهدة الصلح مع روما سنة 189ق.م عرفت بمعاهدة أباميا، فما كان من حنبعل إلا أن فرَّ إلى كريت ومنها لجأ إلى "بروسياس" (Prusias) ملك بيثينيا الذي عينه كمستشار له في الشؤون السياسية والعسكرية، وقد ساعده حنبعل في تحقيق الانتصار على "برجاموم" أحد حلفاء روما سنة 186ق.م، الأمر الذي أثار استياء هذه الأخيرة وبالقوة أجبرت الملك "بروسياس" توقيع معاهدة الصلح وتسليم حنبعل⁽⁴⁾، ولما كان هروب القائد حنبعل هذه المرة أمرا مستحيلا قرر الانتحار مسموما وكان ذلك عام 183ق.م على الوقوع في قبضة الرومان⁽⁵⁾، مخلفا وراءه

⁽¹⁾ - أكثر تفاصيل عن بنود المعاهدة انظر: محمد العربي عقون، المرجع السابق، ص 100.99.

⁽²⁾ - فرانسوا دوكريه، المرجع السابق، ص 214، 215.

⁽³⁾ - توفيق الطويل، قصة الكفاح بين روما وقرطاجة، دار النشر الحديث، القاهرة، 1963، ص 200.199.

⁽⁴⁾ - ميثم عبد الكاظم جواد النوري، "العلاقات الرومانية-السلوقية (200-187ق.م)"، مجلة الفنون والأدب وعلوم

الانسانيات والاجتماع، كلية الامارات للعلوم التربوية، الامارات العربية المتحدة، ع.02، 2016، ص 36.

⁽⁵⁾ - توفيق الطويل، المرجع السابق، ص 202.

عبارته المشهورة: " دعونا نخلص الشعب الروماني من مخاوفه الطويلة، لأنه لا يملك الصبر على انتظار وفاة رجل عجوز"⁽¹⁾.

6. خاتمة:

- لقد كانت عملية نقل الحرب من ايطاليا إلى افريقيا الورقة الراجعة التي ضمنت بها روما استبعاد حنبعل من ايطاليا وحمله على العودة إلى افريقيا، وبذلك يكون سكيبيو قد حارب حنبعل بنفس سلاحه.

- تراجع الملك سيفاكس عن التحالف مع روما حتى يجنب افريقيا ويلات حرب ستكون لها عواقب وخيمة على المنطقة، كما أن نقل الحرب إلى افريقيا سيضر بمصالح الملك سيفاكس وسيعرقل عملية توسع مملكته على حساب أراضي جيرانه الماسيل بعد وفاة الملك "غايا" وسيعارض مع طموحه في حكم دولة نوميديا موحدة تمتد حدودها من الأراضي القرطاجية شرقا إلى وادي ملوشا غربا، ومن جهة أخرى أن سيفاكس كان يدرك أن لروما أطماع ومصالح سياسية واقتصادية في الضفة الغربية للمتوسط بما فيها منطقة شمال افريقيا، وهذه المصالح لن تتحقق إلا بالقضاء على قرطاجة ومحوها كليا من الخريطة الجغرافية لشمال افريقيا، وإذا ما تحقق لها هذا الهدف سوف يأتي الدور لا محالة على مملكته عاجلا أو آجلا.

- تحالف روما مع ماسينيسا كان له دور كبير في ترجيح كفة الانتصار لصالح روما، فقد استفاد "سكيبيو" من خبرة ماسينيسا العسكرية في حربه ضد قرطاجة هذا من جهة، ومن جهة أخرى سهل له عملية التحرك في افريقيا، حيث كان مرشدهم ودليلهم في هذه المنطقة التي يجهلون جغرافيتها وطبائع القبائل القاطنة بها.

- تحالف ماسينيسا مع روما كان نكاية منه بقرطاجة التي تنكرت له وللانتهارات العسكرية التي حققها جيشه لقرطاجة في شبه جزيرة ايبيريا في حربها ضد روما، وأيضا رغبته في الانتقام بعدما تبين له تورط قرطاجة مع عدوه سيفاكس لاستبعاده من وراثة عرش مملكة الماسيل بعد وفاة والده الملك "غايا"، لأن استبعاده من السلطة يعني الكثير للملك سيفاكس الذي يريد أن يكون ملكا للملكة نوميديا مترامية الأطراف تمتد حدودها من وادي ملوشا غربا إلى حدود قرطاجة شرقا.

- تكالب القوى المتصارعة (قرطاجة وروما) للظفر بحليف في منطقة شمال افريقيا، واستجابة الممالك النوميديا (ماسينيسا وسيفاكس) لدعوة هؤلاء، لأن كل طرف من أطراف النزاع بما في ذلك الممالك النوميديا التي أصبحت كطرف ثالث في الصراع القرطاجي الروماني كان بما يخدم مصالح كل طرف

¹)-Tite Live,Livre.XXXIX, 51,9.

بالدرجة الأولى، فروما بتحالفها مع ماسينيسا تكون قد فتحت جهة قتال جديدة على قرطاجة في الأرض الافريقية لا سيما في ظل توتر العلاقات بين قرطاجة وماسينيسا، وهذا الأخير قبل التحالف الروماني لأنه كان يبحث (أي ماسينيسا) على حليف يساعده ويسانده لاسترجاع مملكة والده، وليزيد من وطأة الحرب على قرطاجة التي ستضطر إلى القتال على جبهتين - روما من جهة وماسينيسا من جهة أخرى- نظير ما فعلته به، والأمر نفسه مع قرطاجة سعت إلى كسب ود الملك سيفاكس باعتباره أقوى الملوك آنذاك فضلا عن أنه يمتلك جيشا قويا يعول عليه في الحروب، بالإضافة إلى موقع مملكته الاستراتيجية وبالتالي ستضمن قرطاجة ايصال الامدادات العسكرية بكل سهولة إلى جيوشها المرابطة في اسبانيا وستضمن خط الرجعة دون مشاكل تذكر، كما لن يجد سيفاكس ما يعيق طريقه في ضم مملكة الماسيل إلى مملكته.

قائمة المصادر والمراجع:

- العربية:

- اكصيل اصطيفان ، تاريخ شمال افريقيا القديم-التاريخ العسكري لقرطاجة-، تر: محمد التازي سعود، ج3، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 2007.
- بن عبد المؤمن محمد ، " الملك سيفاقس ولقاء سيقا الدولي 206ق.م- صفحة من الدبلوماسية النوميديّة-"، مجلة عصور، كلية العلوم الانسانية والعلوم الاسلاميّة-جامعة وهران1، الجزائر، مج.06، ع.01، 2007.
- جولييان شارل أندري ، تاريخ افريقيا الشمالية- تونس، الجزائر، المغرب الاقصى من البدء الى الفتح الاسلامي 647م، تع: محمد مزالي، البشير بن سلامة، مؤسسة تاوالت الثقافية، (د.م)، 2011.
- حارش محمد الهادي ، التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الاسلامي، المؤسسة الجزائرية للطباعة، (د.ت).
- حارش محمد الهادي ، التطور السياسي والاقتصادي في نوميديا منذ اعتلاء ماسينيسا العرش الى وفاة يوبا الاول 203-46ق.م، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1985.
- خالدية مضوي، " المسيرة الحضارية للملك صيفاقس Syphax (220ق.م-202ق.م) حاكم مملكة الماسيسيل"، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، جامعة معسكر، الجزائر، مج.01، ع.01، 2007.
- دبوز محمد علي ، تاريخ المغرب الكبير، ج.01، مؤسسة تاوالت الثقافية، (د.م)، 2010.

- دوكريه فرانسوا ، قرطاج الحضارة والتاريخ، تر: يوسف شلب الشام، ط1، دار طلاس، دمشق، 1994.
- دوكريه فرانسوا ، قرطاجة أو امبراطورية البحر، تر: عز الدين أحمد عزو، ط1، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1996.
- سرحان أبو بكر، "الحروب البونية بين روما وقرطاجة (264-146 ق.م) أسبانيا، أحداثها، نتائجها، وموقف الممالك الأهلية المغربية منها"، مجلة الدراسات الافريقية، معهد البحوث والدراسات الافريقية، القاهرة، ع.35، 2013.
- شنيقي محمد البشير، أضواء على تاريخ الجزائر القديم (بحوث ودراسات)، دار الحكمة، الجزائر، (د.ت).
- صفا محمد أسد الله ، هانيبال، ط1، دار النفائس، بيروت، 1987.
- الطويل توفيق ، قصة الكفاح بين روما وقرطاجة، دار النشر الحديث، القاهرة، 1963.
- العسلي بسام ، هانيبال القرطاجي 247-183 ق.م، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980.
- عقون محمد العربي ، " ماسينسا من استعادة حقه في العرش الماسيلي إلى بناء الوحدة النوميدية 238-148 ق.م"، مجلة العلوم الاجتماعية والانسانية، جامعة باتنة-1- الحاج لخضر، الجزائر، مج.11، ع.22، 2010.
- فرحاتي فتيحة ، نوميديا من حكم الملك غايا إلى بداية الاحتلال الروماني، الحياة السياسية والحضارية (213 ق.م/46 ق.م)، منشورات أبيك، الجزائر، 2007.
- فنطر محمد ، يوغرطة من ملوك شمال افريقيا وأبطالها، الدار التونسية، تونس، 1970.
- قداش محفوظ ، الجزائر في العصور القديمة، تر: صالح عباد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1993.
- المحجوب عبد المنعم ، ليبيا القديمة، دار الاتحاد للنشر والتوزيع، تونس، 2018.
- المدني أحمد توفيق ، قرطاجنة في أربعة عصور من عصر الحجارة إلى الفتح الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

- النوري ميثم عبد الكاظم جواد، " العلاقات الرومانية-السلوقية (200-187ق.م) "، مجلة الفنون والأدب وعلوم الانسانيات والاجتماع، كلية الامارات للعلوم التربوية، الامارات العربية المتحدة، ع.02، 2016.

- الأجنبية:

- Didore de Sicile, **Bibliothèque Historique**, Trad. Ferd Hoefer, Tome.04, Charpentier, Paris, 1846.
- polybe, **Histoire Générale**, Tome. Deuxième, Livre.XIV, Trad. Félix Bouchot, Lebraire Editure, Paris, 1847.
- Strabon, **Géographie**, Trad. Amédée Tradieu, Tome.01, Paris, 1867.
- Tite Live, **Histoire Romaine**, Trad : M .Nisard, Paris, 1864.